إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السادسة – العدد الحادی والعشرون – ربیع ۱۳۹۵ش/آذار ۲۰۱٦م
صص ۱۸۲ ـ ۱۵۷

تحليل خطاب أبی العلاء المعری فی رسالة الصاهل والشاحج

هومن ناظميان*

الملخص

رسالة الصاهل والشاحج من الأعمال الأدبية البارزة فی العصر العباسی من الناحيتين الموضوعية والشكلية التی قلما حظيت باهتمام النقاد والدارسين. ألفها أبوالعلاء المعری مُوَجِّها إلى أبی شجاع فاتک الملقب بعزيز الدولة والی الحلب للفاطميين حوالی سنة ٤١١ أو ٤١٢ق وتحدث فيها عن قضايا أدبية، نقدية، تاريخية، اجتماعية، وسياسية عبر الحوار بين فَرَس يدعی الصاهل وبغل يدعی الشاحج، وأودعها كثيرا من المعلومات، والألغاز اللغوية، والنحوية، والعروضية، والقضايا المتصلة بالعلاقات السياسية بين والی حلب والفاطميين من جهة، وبينه وملک الروم من جهة أخری وصوّر أحوال الناس خلال أزمة حدثت إثر الصفقات السياسية بين عزيز الدولة والی حلب وبسيل، ملک الروم. قمنا بدراسة هذه الرسالة لتبيين دور السلطة والأيديولوجيا فی تكوين خطاب أبی العلاء ولغته فی هذه الرسالة وفی ضوء التحليل النقدی للخطاب. تخلص هذه الدراسة إلى أنه بإمكاننا أن نقسم خطاب أبی العلاء المعری فی هذه الرسالة إلى أربعة أنواع: الخطاب الأدبی الذی يضم معلوماته الواسعة فی مجال الشعر واللغة والنحو والعروض، والخطاب السياسی الذی يتمثل فی تصويره لقضايا سياسية بين والی حلب وملک الروم، والخطاب الاجتماعی الذی يتبلور فی تصويره لأحوال الناس خلال أزمة غزو الروم لحلب وخطاب الدعاية بين الروم والمسلمين. لعبت السلطة السياسية والثقافية دورا رئيسا فی تكوين خطاب أبی العلاء ولغته.

الكلمات الدليلة: تحليل الخطاب، العصر العباسی، أبوالعلاء المعری، رسالة الصاهل والشاحج.

---

*. أستاذ مساعد فی فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمی، طهران، إيران
nazemian@khu.ac.ir

تاريخ الوصول: ۱۳۹٤/۷/۸ش تاريخ القبول: ۱۳۹٤/۱۱/۲۵ش

المقدمة

تحليل الخطاب ظاهرة تتعلق بالدراسات البينية والحقول المتداخلة وترتبط بقضايا مختلفة فى شتى الفروع العلمية والتخصصات كاللسانيات، والدراسات الأدبية، والأسلوبية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ. (ون دايک، ١٣٩٤ش: ١٣و١٤) والتحليل النقدى للخطاب من أحدث اتجاهاته التى تدرس وظيفة اللغة فى المجتمع والسياسة ولهذا يدرس اللغة فى اتصاله بالأيديولوجيا، والسلطة، والتاريخ، والمجتمع فى مستوى النصوص المكتوبة والمنطوقة. (آقاگل زاده، ١٣٨٥ش: نُه) بإمكاننا أن نستفيد منه فى دراسة النصوص التراثية التى تعكس القضايا السياسية والتاريخية للمجتمع العربى والإسلامى كرسالة الصاهل والشاحج لأبى العلاء المعرى وهى رسالة ضخمة من الرسائل القيمة لأبى العلاء المعرى التى ألفها حوالى سنة ٤١١ أو ٤١٢ق. (المعرى، ١٩٨٤م: ٥١)

حاولنا فى هذه المقالة أن ندرس دور السلطة والأيديولوجيا فى تكوين خطاب أبى العلاء ولغته فى رسالة الصاهل والشاحج من منظار التحليل النقدى للخطاب؛ لأن هذه الرسالة وثيقة هامة تدل على العلاقات السياسية بين حلب ومصر والروم، وتشمل معلومات قيمة حول الظروف الاجتماعية لمجتمع حلب وموسوعة أدبية، لغوية ونقدية حافلة بالنكت العروضية والنوادر الأدبية، فهى رسالة صالحة للدراسة من جوانب متعددة.

خلفية البحث

قلما اهتم النقاد والدارسون بهذه الرسالة على الرغم من اهتمامهم بأبى العلاء وأدبه وتشاؤمه، ربما بسبب ظنهم أنها محاكاة لكليلة ودمنة. بحث راقم هذه السطور كثيرا ليجد دراسات مستقلة تختص بهذه الرسالة ولكن لم يجد إلا قليلا وهى:

المقدمة القيمة التى كتبتها عائشة عبدالرحمن بنت شاطئ فى تحقيقها لمخطوطة الرسالة.

درس صلاح رزق هذه الرسالة خلال دراسته لنثر أبى العلاء فى كتابه "نثر أبى العلاء

المعرى؛ دراسة فنية".

مقالة لأمجد الطرابلسى تحت عنوان "رسالة الصاهل والشاحج" فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

مقاله ليوسف الشارونى فى مجلة القصة تحت عنوان "العرب والقصة؛ الصاهل والشاحج نموذجا".

فلم يعثر الباحث على دراسة تهتم بخطاب أبى العلاء فى رسالة "الصاهل والشاحج" أو القضايا اللغوية والأدبية والسياسية والاجتماعية فيها، فرأى من الضرورة أن يدرس اللغة والسلطة والأيديولوجيا فى هذه الرسالة من منظار التحيل النقدى للخطاب.

فحث الباحث على القيام بدراسة هذه الرسالة لتبيين الصلة بين اللغة والسلطة والأيديولوجيا فى خطاب أبى العلاء فى هذه الرسالة، والإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما هى أنواع خطاب أبى العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والشاحج؟
٢. كيف كونت السلطة السياسية والثقافية خطاب أبى العلاء؟
٣. كيف أثرت السلطة السياسية والثقافية على لغة أبى العلاء؟

الخطاب

لفظة الخطاب (discourse) مأخوذة من اللفظة الفرنسية (discous) وهى بدورها مقتبسة من اللفظة اللاتينية (discursus) بمعنى الحوار والكلام. (مک دانل ، ١٣٨٠ش: ١٠؛ وناظميان، ١٣٩١ش: ٣) كان اللسانى الإنكليزى زليک هريس رائد دراسات الخطاب فى عام ١٩٥٢م الذى وسّع مفهوم الخطاب إلى مجال أوسع من الجملة ولهذا كان تحليل الخطاب فى بداياته مرتكزا على الألسنية لكنه تجاوز فى ما بعد إلى الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والثقافية. (يقطين، ٢٠٠٥م: ١٧ و ١٨)

فمفهوم الخطاب، ظاهرة معقدة متعددة الجوانب تتداخل فيها حقول معرفية مختلفة من الدراسات الأدبية والثقافية إلى علم الاجتماع والسياسة والفن والسينماء وعلم النفس و... . (مک دانل، ١٣٨٠ش: ٩) تعدد مفهوم مصطلح الخطاب بتعدد تصورات المهتمّين به؛ إذ تنوعت المنطلقات نتيجة اختلاف فهم المهتمين على وفق التطور فى

مـا أنتج فى مجـال نظريته. تنبع هـذه التعاريف من اتجاهين: الاتجاه الألسـنى والاتجاه الاجتماعى.

ظهر تحليل الخطاب فى حقل الدراسات المعرفية فى مختلف مجالات العلوم الإنسانية كالأنثربولوجيـة، علـم الاجتماع، علم النفس الاجتماعى، اللسـانيات، السـيميائية، الدراسـات الأدبية وكل الحقول المعرفية التى تهتم بالدراسة المنهجية للبنى والوظائف فى مسـار تكوين الخطاب. (فركلاف، ١٣٨٧ش: ٧) بعبارة أخرى تحليل الخطاب منهج يقوم بدراسـة بنى النصوص وخصائصهـا اللغوية والاجتماعيـة والثقافية ليبين كيفية نشـأة النصوص. فى الاتجاه الفرنسـى يتجه هذا التحليل نحو دراسة النصوص المكتوبة فى ظروفهـا الاجتماعية والسياسـية ويسـتفيد من مناهج كتحليل المحتوى والسـردية والسمياءية ونقد المعتقدات ويرينا كيف تؤثر علاقات السلطة على العلاقات بين الناس وكيفية نشوء النصوص. (مكاريک، ١٣٨٤ش: ٢٦٠)

تجـاوز مفهـوم تحليل الخطاب من الاقتصار على دراسـة العناصـر اللغوية البحتة إلى دراسـة الظروف الثقافية والاجتماعية والسياسـية التى ينشأ الخطاب فى طياتها. (فركلاف، ١٣٨٧ش: ٧ و ٨) وتطرق إلى دراسة العناصر اللسانية والسيمائية والأسلوبية التى تسـاعد على تكوين الخطاب. (مک دانل، ١٣٨٠ش: ١٧) فى هذا الإطار تدرس القوالب التى يسـاق الكلام فيها والعناصر اللغوية التى تسـتخدمها المؤلف كالمفردات، اختيار الأسماء والعناوين وكيفية سوق المعانى فى الألفاظ واختيار التعابير التى تعكس وجهات النظر العقائدية أو السياسـية أو الاجتماعية والثقافية لمؤلف النص التى أثرت علـى المؤلف فى إخراج نصه بهذه الصـورة التى نقرأها. (ياراحمدى، ١٣٨٣ش: ١٤٣ و ١٤٤)

ومـن أحدث الاتجاهات فى تحليل الخطـاب، التحليل النقدى للخطاب الذى يرتبط بدراسـة الأدب عبر تحليل النصوص الأدبية والأسـلوبية والنقد الأدبى. لأن النصوص الأدبية تخدم الاتصال كسـائر النصوص ولهذا يمكن دراسـتها مـن المنظار النقدى. إن مسـتخدمى هـذا الاتجاه يرون أن فهم النص وتحليله موقوف على السـياق الفلسـفى والتاريخى والسياسـى والاجتماعـى والعقائدى والخطـاب لأن الارتباط بين الناس

والمجتمع ليس عشوائيا بل تكونه السلطات الاجتماعية والعوامل المكونة للخطاب. (آقاگل زاده، ١٣٨٦ش: ١٧)

التحليل النقدى للخطاب طوّر تحليل الخطاب من مستوى وصف النصوص إلى مستوى تبيينها والاهتمام بسياق المجتمع والتاريخ والأيدئولوجيا. (آقاگل زاده، ١٣٨٦ش: ١٨) فيدرس اللغة كممارسة اجتماعية فى الصلة بالأيديولوجيا والمجتمع والتاريخ والسلطة فى مستوى النصوص ويضرب بجذوره إلى ما بعد الحداثية وخاصة آراء فوكو. يعتقد هذا الاتجاه أن السلطات السياسية والثقافية والاجتماعية يصنعون الخطاب طوال الزمن ويحاولون تطبيع خطابهم حتى يقبله الناس طوعا ويخيل إليهم أن اختيار هذا الخطاب وقبوله تم على أساس إرادة الناس. فالخطاب بإمكانه أن يكوّن الثقافة والأيديولوجيا فى المجتمع. (آقاگل زاده، ١٣٨٥ش: نُه)

والفرضية الأساسية فى هذا الاتجاه أن الصلة بين صورة الخطاب ومحتواه ليس طبيعيا بل تكوّنه السلطات السياسية والثقافية والاجتماعية، فتحليل الخطاب من منظار اللسانيات النقدية تحليل النصوص المخصبة بالمعانى الأيديولوجية. (آقاگل زاده، ١٣٨٥ش: ١٢٣) فاللغة والسلطة والأيديولوجيا من المفاهيم الرئيسة فى تحليل الخطاب النقدى. (آقاگل زاده، ١٣٨٦: ٢٠)

رسالة الصاهل والشاحج

رسالة الصاهل والشاحج رسالة ضخمة تزيد على ستمائة صفحة وهى من الرسائل القيمة لأبى العلاء المعرى التى ألفها حوالى سنة ٤١١ أو ٤١٢ق. لقد كان من شأن الرسائل الأدبية فى تلك الفترة أن يتناولها طلاب المعرفة والمشاهير من الأدباء بالدرس والنقد، فقد حرص أصحاب الرسائل دائما على دلالة هذه الرسائل على مكانتهم وثقافتهم وتفوقهم. عرف أبوالعلاء أن الرسائل الأدبية سبيل إلى معرفة القدر وإثبات المكانة العلمية المرموقة وتدفعه بين الحين والحين رغبته فى تقديم أكبر قدر من الفائدة لتلامذته وطلاب المعرفة لديه أن يتطرق إلى العديد من المسائل الفرعية والقضايا الجانبية التى كثيرا ما تقطع السياق وتنال من التئام الأفكار وانسجامها ويميل إلى الدعابة تجنبا

ملل القارئ ويستخدم إطار القصة لتقديم أفكاره ومعلوماته. (رزق، ٢٠٠٦م: ١٣٥-١٣٣) وهى وثيقة هامة تدل على العلاقات السياسية بين حلب ومصر والروم من جهة وموسوعة أدبية، لغوية ونقدية حافلة بالنكت العروضية والنوادر الأدبية.

كتب أبوالعلاء هذه الرسالة قبل رسالة الغفران حوالى خمس عشرة سنة وتتجلى فى الرسالتين روح السخرية المرة والدعابة اللاذعة التى لا يسلم منها أمير حلب وتعبر عن الموقف الذى اتخذه الكاتب من أوضاع المجتمع. ليست هذه الرسالة كتاب تاريخ بالمصطلح التقليدى لكنها تقدم تفسيرا تاريخيا لأحداث البيئة والعصر وتضئ لنا تلك الفترة وتضيف إلى ما اقتصر عليه المؤرخون من سرد الأحداث السياسية وتعرض عرضا حافلا مثيرا لما يتصل بالمجتمع من الظروف الاجتماعية السائدة والطبقات الاجتماعية والصناعات والحرف والمتاجر... . وأبوالعلاء فى تأريخه يأتى بالشخصيات التاريخية مع ما تتصف به من أسماء وألقاب ويسجل الأحداث وما يقع فيها من الزمان والمكان لكنه يحكى ذلك كله على ألسنة البهائم. (المعرى، ١٩٨٤م: ٣٠ و ٣١ و ٤٢)

خلاصة قصة الصاهل والشاحج

يظهر أبوالعلاء على المسرح ليمهد بتحية موجهة إلى السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء والاعتذار عن مكاتبته فى شكوى بنى أخيه المتعلقة بأرض لهم يقال إن عليها مالا ينبغى أداؤها إلى بيت المال ولهذا الصدد يصف أبوالعلاء عن عناء البغل فى هذا الأرض بسبب قحلها وينحسب بلطف حتى يتحدث عن لسان البغل ويبدأ الحوار بقدرة الله بين الصاهل والشاحج. وعندما يسمع الشاحج أن خاله "الصاهل" فى طريقه من مصر إلى حلب، طلب منه أن يحمل مظلمة شعرية إلى حضرة الحاكم السيد عزيز الدولة وتاج الملة ولكن الصاهل لا يحب هذه الخؤولة ويسخر منه فينساق الجدل إلى الخصومة فيقترح الصاهل أن يحتكما إلى الفاختة ويرفض الشاحج تحكيم الفاختة وهى المشهورة بالكذب ويقترح أن يحتكما إلى بعير يدعى أبوأيوب. فتسمع الفاختة كلام البغل وتسرع إلى البعير وتحكى له القصة وتلفق الأكاذيب فى حديث البغل فيغضب البعير ويهاجم البغل وبعد انكشاف الحقيقة يتعذر إلى البغل ويقبل أن يوصل

مظلمته الشـعرية إلى الحضرة العالية لكنه لايفهم كلام البغل لما فيه من الألغاز اللغوية والنحويـة... فيدخل الثعلب فى القصة والحوار بينه وبين الشـاحج ينتهى إلى الصداقة بينهما فيطلب الشـاحج منه أن يتجول فى المدينة ويأتى له بأخبار الحلب وأحوال أهلها فى جفلة الخوف من غزو الروم فينقل الثعلب ما يتصل بالسياسة والمجتمع والبلاط وفى نهاية هذه الجولات والنشرات الإخبارية يتدخل أبوالعلاء ويلقى بتحية الختام إلى والى حلب السيد عزيز الدولة وتاج الملة. (م.ن: ٤٠ و ٤١)

قبـل العثور على نص هذه الرسـالة كان الظن السـائد أنها محـاكاة لكتاب "كليلة ودمنـة" لكنهـا تختلـف اختلافا جوهريا فى عـدة نقاط: قصص كليلـة و دمنة فى رأى الدكتورة عائشـة عبدالرحمن بنت الشاطئ «تلقى بأسلوب لحكاية فى مجلس ملك الهند لاتربط بينها وحدة زمان ومكان كما لايربطها بعالم الإنسـان سـوى ما تقدمه من عبرة صريحة وموعظة مباشـرة ولكن رسـالة الصاهل والشاحج ليست مجموعة قصص شتى بل قصة واحدة مترابطة الفصول والمشاهد وهى لاتؤدى بطريقة الحكاية والسمر لسوق العبرة ومضرب المثل، بل صيغ الحوار فيها على طريق التشـخيص والإخراج التمثيلى الزاخر بالحركة والحيوية، موضوعها الرئيسى تصوير للذعر السائد على الناس لما كانوا يتوقعون من خروج بسيل ملك الروم لغزو حلب.» (م.ن: ٣٩) وعلى عكس ما فى "كليلة ودمنة" حيث يقص الإنسان حكاياته التعليمية على لسان الحيوان ففى رسالة الصاهل والشاحج تتحدث الشخوص الحيوانية عن العالم الإنسانية.

ظروف نشأة النص

كتـب أبوالعلاء هذه الرسـالة بإلحاح بنى أخيه لرفع مظلمـة إلى والى حلب، عزيز الدولة بشـأن أرض قاحلة لهم طلب الجباه أخذ الضرائب منها واسـتغل أبوالعلاء هذه الفرصة ليكتب رسـالة ضخمة إلى الوالى ويطلب منه إعفائهم عن هذه الضرائب. (م.ن: ٨٩-٨٤) واسـتغل أبوالعلاء هذه الفرصة وأودع فى رسـالته موسوعة من معلوماته فى إطار محاورات خيالية بين بغل يدعى الشاحج، فرس يدعى الصاهل ويتدخل فى الحوار الحمامة تدعى "الفاخته" والجمل يدعـى "أبوأيوب" والثعلب يدعى "ثعالة". وكان هذا

الأمير محبا للشعر والشعراء وتسامع الناس أنه يعلم العروض. (م.ن: ٤٣)

الظروف السياسية لحلب وأعمالها فى عهد أبى العلاء

كانت أحوال مجتمع الشام وخاصة حلب وأعمالها مضطربة فى عهد أبى العلاء والمعرة فى تلك الأيام كانت بلدة عامرة تشخص إليها أنظار الطامعين وكانت هدفا للغارات والفتن أرهقت سكانها. كانت الإمارة الحمدانية بين قوتين عظيمتين؛ الروم فى الشمال والفاطميين فى الجنوب. كانت الروم فى الشمال متأهبة للغارة والعدوان والفاطميون فى الجنوب طامحين فى السيطرة على الشام وانتزاع الحكم من بنى حمدان الذين كانوا يضعفون يوما بعد يوم بسبب خلافات داخلية كثيرة بينهم. والحكام الحمدانيون يتطاحنون على الملك ويستنجدون بالروم أو الفاطميين فى صراعاتهم الداخلية وفى هذه الظروف المليئة بالحروب والغارات والفتن والدسائس كان الناس يتملكهم الذعر. (المقدسى، ١٩٨٦م: ٣٩) فآل الأمر إلى انهيار مُلكِم واستيلاء الفاطميين على حلب سنة ٤٠٧ للهجرة حيث عين الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى، عزيز الدولة حاكما لحلب وأعمالها. (ابن أبى جرادة، ١٤٢٥ق، ج١: ١٩٠-١٨٨؛ المحاسنى، ١٩٤٧م: ٥٤)

كان فاتك بن عبدالله الرومى أبوشجاع الملقب بعزيز الدولة أرمنى الأصل غلاما لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر وكان فى خدمة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى. فولّاه حلب وأعمالها ولقّبه بأمير الأمراء عزيز الدولة وتاج الملة، فدخل حلب فى رمضان ٤٠٧ق. لكن بعد مدة توترت العلاقات بينه وبين الفاطميين ودعا لنفسه وضرب الدنانير والدراهم باسمه. ثم أرسل الحاكم جيشا لإخضاعه سنة ٤١١ق وأرسل عزيز الدولة إلى "بسيل" - ملك الروم - يستنجده فأقبل بسيل يتقدم نحو حلب وكان الناس قد أجفلوا من هجومه على حلب؛ فكانت هذه الجفلة تسمى جفلة عزيز الدولة لأنها وقعت بسببه. لكن قبل وصوله، توفى الحاكم بأمر الله وأخذ ابنه الظاهر بمقاليد الحكم واستبقى عزيز الدولة فى مكانته. فكتب عزيز الدولة إلى ملك الروم والغى ما كان بينهما من العهود والشروط وبعد مدة دخل عليه غلام هندى وقتله سنة ٤١٣ وقيل أن الفاطميين كانوا من وراء هذا الاغتيال. (ابن أبى جرادة، ١٤٢٥ق، ج١: ١٩٣-١٩١؛

الزركلى، ٢٠٠٢م، ج٥: ١٢٦)

كان عزيــز الدولة غير عظيمة الخطر لأنه كان من الحــكام الكثيرين الذين تعاقبوا بعد سيف الدولة على حكم حلب وكان كثيرهم يدفعون عن أنفسهم شر الروم بالأموال والمعاهدات التى تثبت ضعفهم واســتكانتهم. (الطرابلسى، ١٣٩٤ق: ١٢) فتكونت هذه الرســالة فى فــترة تاريخية مضطربة من تاريــخ حلب حيث عاش النــاس حياة القلق والذعر لمدة طويلة.

بنية الرسالة

تنقســم الرسالة إلى ثلاث بُنى رئيسة: أولها تقديم صورة كاملة لأحوال مجتمع حلب فى تلك الفترة وما يحدث فى قصور الســلاطين والأمراء والعلاقات الخارجية بين والى حلب وبســيل ملك الروم وخاصة الذعر الســائد على أبناء حلب جراء انتشــار خبر قصد ملك الروم لغزو حلب. تتخلل ذلك النصائح السياســية والمشورات الدبلوماسية. الخط الثــانى يتمثل فى الثقافة الأدبية واللغوية والثالــث يتمثل فى لون الدعابة والمرح يقدم أبوالعلاء من خلالها ســخريته وتهكمه وأحاجيــه وألغازه الأدبية واللغوية. (رزق، ٢٠٠٦م: ١٥٣)

من ناحية أخرى يمكن التمييز بين قسمين رئيسيين:

القســم الأول ديباجة تحية واعتذار إلى والى حلب الذى يخاطبه أبوالعلاء "الســيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء" أبى شــجاع فاتك وتقديم شــكوى لأبناء الأخ. القســم الثانى: المشــاهد الخمســة المتمثلة فى الحوار بين الصاهل والشاحج والفاختة والبعير والثعلب على النحو التالى:

المشــهد الأول: يدخــل فيه الفــرس "الصاهل" فى طريقه من مصــر إلى حلب على الشــاحج "البغل" ويهنئه الشاحج ويبادره بالحوار بقدرة الله كما يقول أبوالعلاء. يطلب منــه الشــاحج أن يرفع له شــكوى منظومة إلى والى حلب ويحــاول أن يصادقه ولكن الصاهل يأنف من مصداقة الشاحج ويسخر منه.

المشهد الثانى: تسمع فاختة كلامهما وتدخل فى القصة وتعكس كلام الشاحج لتفسد

ما بينها وبين البعير، فيهاجم أبوأيوب على الشـاحج لينتقم منه، وبعد أن يتبين له كذب الفاختة يعتذر إليه، فيطلب الشـاحج منه أن يحمل رسـالة نثرية له إلى الحضرة العالية بحلب حافلة بالألغاز والتورية ولكن لايفهم أبوأيوب هذه الألغاز ويسـخر من الشاحج فييأس منه الشاحج.

المشـهد الثالث: يجئ الثعلب ويدخل عليهم، وبينما هو يتكلم مع الشـاحج يسمعان ضجة فى حلب، يطلب منه الشاحج أن يتجول فى حلب ويأتى بأخبارها فى هذه الجولات الإخبارية يتحدث الثعلب عن كثير من أخبار القصر التى كانت تتناقله العامة مثل:جفلة النـاس من عـزم ملک الروم لغزو حلب، علاقات المـودة الخفية بين عزيز الدولة والى حلب وباسيل ملک الروم، الصفقات والمؤامرات السياسية بين عزيز الدولة والى حلب وملک الروم من جهة والظاهر بأمر الله الخليفة الفاطمى من جهة أخرى.

المشهد الرابع: يرجع الثعلب ويتحدث عن أنباء حلب وأهلها.

المشـهد الخامس: يرجع الثعلب، يتحدث الشـاحج عن أخبـار الجالين عن حلب فى العـودة إلى ديارهـم والثعلب يتحدث عن أخبار العدو واسـتعداده للغزو. (المعرى، ١٩٨٤م: ٨٠٨-٨٠٤)

أنواع الخطاب فى رسالة الصاهل والشاحج

الخطاب اللغوى والأدبى

حاول أبوالعلاء أن يقدم أكبر قدر ممكن من معلوماته فى مجال الشعر واللغة لأنه كان واسع الاطلاع على أساليب البلغاء وأسرار البلاغة وعالما جد العلم باللغة محيطا بالغريب والنـادر منها وقد قال تلميـذه أبوزكريا التبريزى: ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها أبوالعلاء. (طباخ، ١٤٠٨ق، ج٤: ١٤٠ و ١٤١) ولهذا نرى أنه أودع رسائله كثيرا من معلوماته خاصة فى مجال غريب اللغة وشـعر العرب. تراث أبى العلاء يتسم بالثقافة الموسوعية بالنسبة لمعارف الإنسان على أيامه. فالعلم قد ملک حياته واعتمد على نفسه فى التحصيل العلمى أكثر مما اعتمد على الشيوخ والأساتذة. (خريبانى، ١٩٩٠م: ١٧)

من جانب آخر الغريب والسـجع يلزمان نثر أبى العـلاء. عقّد أبوالعلاء نثره تعقيدا

شـديدا «أتاحه له فراغـه الطويل الذى أمضاه فى عزلته عن النـاس وربما كان لضيقه بالحياة وبرمه بها أثر فى هذا التعقيد؛ فقد انقلب هذا الضيق من حياته إلى فنه... وأيضا فإن فقده لبصره وإحساسه العميق بهذا الجانب جعله يطلب التفوق على معاصريه وقد ذهب يحاول هذا التفوق عن طريق تعقيد فنه تعقيدا لم يكن يسـتطيعه إلا صانع ماهر.» (ضيف، ١٩٩٥م: ٢٦٩) وأصبح يقصد به إلى إحداث طرائف لغوية لاتعتمد على زخرف ولا على تنميق بل تعتمد على الإبهام والغموض والإغراب. (م.ن: ٢٧٢)

لقـد حكّم قانونه الفلسـفى الصارم فى نثره كما حكّمه فى شـعره وحياته، فالتزم فى الكتابة مالايلزم من إيثار الغريب وتصريف اصطلاحات العلم فى التعبير عن العواطف فيـؤدى كثيرا من الأغراض بتلك الضروب العروضية. ومن أظهر خصال أبى العلاء فى نثره فى طور العزلة حرصه على الإستقصاء التام بحيث إذا عرض لمسألة لغوية أو نحوية لايتركها إلا بعد استقصائها. (حسين، ١٩٨٢م: ٢١٨ و ٢١٩) يقول الأستاذ أمين الخولى «اتخذ أبوالعلاء ذخيرته اللغوية وثقافته الأدبية وسيلة للتعبير الدقيق عن خواطر نفسية وتأمـلات فنية وخلجات داخلية كانت تزخر بها نفسـه ويجيش بهـا صدره.» (قنيبى، ١٤٢٦ق: ٢٣)

لكنـه لم يعتمد إيراد الغريب ليسـتر تحته مايريد من غمز أو تهكم أو سـخرية لأنه كان يجاهـر بمعتقداته وينتقد الحكومات والعادات والأخلاق ويعترض على الشـرائع والمذاهب والنحل بأشد ما لديه من النقد اللاذع الصريح ولم يعمد إلى تقية ولا مواربة ولم يعتمد إخفاء شئ منها تحت كلمة حوشية أو لفظة غريبة. (الجندى، ١٩٨٦م: ١٢٣و١٢٤)

على سـبيل المثال يبدأ أبوالعلاء رسالته هكذا: «أسـلِّمُ عَلَى الحضرة العالية تسليم العاجـز المقصِّر كما ينظـر الهادى المدلج إلى فرقد الليل واليمانى المشـيم إلى سُـهَيل وأصحاب الراح يتعوذون مِن مُغَنٍّ إذا ارتجل شُـتِمَ وإذا سـكتَ صِينَ وأكرِمَ وأنا أمُتُّ بحـق التخفيف... و لوكنتُ بالغا فى الأدب أطوَرَىَّ لكنتُ فى تلك الحضرة كالقطرة تحت الصبير والحصاة إلى جانب ثبير فما بالى وأنا مُثقَلٌ استعان بِذَقنٍ وطفلٌ بَهَشَ إلى يَفَن وذليلٌ عاذ بِقَرمَلَة وعبدٌ هتفَ بِأمَة... .» (المعرى، ١٩٨٤م: ٨١)

من منظار التحليل النقدى للخطاب، نرى أن السلطة وراء اللغة وكيفية استخدامها؛

لأن السلطة السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية تفرض لغتها على المجتمع. (خوراسگانی وخوش آمدی، ١٣٩٠ش: ١٣٣) فاختار أبوالعلاء التعقيد فی لغته والسجع والغريب لأن السلطة الثقافية فی عصره تتطلب هذا الاستخدام وكما يشير فيركلاف إلى أن الخطاب يصنع الثقافة والثقافة بدورها تصنع الخطاب، أسلوب أبی العلاء بدوره يساعد على تقوية هذا النوع من الخطاب الأدبی.

استخدم أبوالعلاء الأحاجی اللغوية بصورة واسعة طيات هذه الرسالة. على سبيل المثال، من طرائف هذه الأحاجی ما استخدمها فی وصف مغبة جيش الروم فی حالة غزوهم لحلب مستعينا بعلم العروض: «لو نزل خميسهم بحيث يظن المرجفون، وهو وافر كامل لرأيت الطويل العاتر مديدا فيهم والخفيف المقبوض بسيطا إليهم فكثر المتقارب عند ذلک بينهم وسمعوا الهزج والرجز فعجزوا عن الرَمَل والمضارع له فی تلک الساعة وكان السريع والمنسرح عندهم محمودين وظل جيشهم مُجتَثّا وعميدهم مُقَتضِبا... وهذه الألفاظ ألغزتها عن أجناس الشعر التی رَتَّبَها الخليل فأردت بالطويل الرمح وبالمديد الرمح إذا مُدَّ إليهم ... وعَنيتُ بالخفيف السيف؛ لأن السيوف يقال لها البيض الخفاف وأوهمتُ أنی أريد الخفيف من الشعر وأردت بالمقبوض الذی قبضة الكف على قائمه وأوهمتُ أنی أريد المقبوض الأجزاء ... عنيتُ بالبسيط المبسوط للضرب ... وعنيتُ بالرجز ارتجاز القوم فی الحرب ... .» (المعری، ١٩٨٤م: ٥٤٩-٥٤٧)

الخطاب السياسی

لم يكن أبوالعلاء بمعزل عن الأحداث السياسية. (المحاسنی، ١٩٤٧م: ٦٦) وكان له شفاعات إلى أولياء السلطان فی أناس كانوا يتشفعون به ولكنه كان يجعل حظ الإنشاء والافتنان اللفظی فی تلک الشفاعات أكثر من الحظ الذی توسل به ورغب إليه كما توسل أبناء بلده لكی يكون سفيرهم عند صالح بن مرداس عندما حاصر معرة النعمان وقبل أبوالعلاء هذه السفارة مُكرَها لتضرع قومه إليه ورقة قلبه لهم. فأحسن السفارة واستطاع أن ينحی معرة النعمان وأهلها من الدمار والهلاک؛ حيث قال له صالح بن مرداس بعد أن سمع شفاعته: قد وهبتها لک يريد المعرة. (حسين، ١٩٨٢م: ١٦٤-١٦٠)

يــروى لنا أبوالعلاء الأخبار المختلفة التى تتناقلهــا الأفواه وهذا يدل على اطلاعه الواســع على مســتجدات العصر وأهم الأحداث فى بيئته. مثلا خــروج قوم من الخزر لمهاجمــة الــروم؛ «وقد تحدثت العوامّ بــأن قوما متطوعين غزوا مــن ناحية الخزر. فإن كان هذا صحيحا فإنــه يَلفِت الطاغية عن هذه الجهة ويَفُكُّ عزمه عن الخروج. فيكون مَثَلــه مَثَل الضرب الأول من الطويل أو غــيره من الأوزان إذا أرادو الفَكَّ منه صرفوا وجهه عما هو عليه... فكذلك الطاغية فُكَّ أى صُرِفَ وجهُه إن شاء الله وتَوجَّه إلى ما وراءه.» (المعرى، ١٩٨٤م: ٦٨٣و ٦٨٤)

وفى موضع آخر يتحدث عن خروج أحد قادة عسكر ملك الروم عن طاعته: «وقد زعــم بعض المخبرين أن رجلا من ولد "الفَقّاس" انصرف من عســكر هذا الرجل فَفَلَّ مِــن عزمه وفَتَّ فى عضده وإن كان ذلك علــى ما ذكروه فإن العلة إذا حَلَّت فى الأبنية المجانســة له ألا ترى أن الواو فى "يغزو" عليلة وأن عِلَّتَها سَــرت فى غزا وغازٍ ومُستَغزٍ وغُزاة وغازين... .» (م.ن: ٦٨٤ و ٦٨٥)

كيفية تسمية أمير حلب وملك الروم

ممــا يلفت النظر أن أبا العــلاء كلما يريد أن يتحدث عن والى حلب، يســيمه بلقبه ويدعو له: السيد عزيز الدولة أعزَّ الله نصره وبعض الأحيان يطيل فى ألقابه ويقول عزيز الدولة وتاج الملة وكلما يريد أن يتحدث عن بســيل ملك الروم طوال الرســالة يسميه باسم واحد وهو الطاغية وفى كثير من الأحيان لايصرح باسمه ويشير إليه بالضمير.

كما أشــرنا آنفا الســلطة من أهم مكونات الخطاب. (آقاگل زاده، ١٣٨٥ش: ١٥٩) فنرى أبا العلاء يذكر والى حلب بألقابه وبعض الأحيان يطيل فى ذكر الألقاب لأنه يمثل السلطة السياسية فى فترة كتابة هذه الرسالة لكنه يقتصر فى تسمية ملك الروم وكثيرا ما لايصرح باسمه ويشير إليه مستخدما الضمير أو يذكره بلقب يحمل معنى سلبى.

العلاقات بين عزيز الدولة وبسيل

يتحــدث أبوالعــلاء عن العلاقات الودية بين عزيز الدولة والى حلب وبســيل ملك الروم: «مَثَل السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء أعز الله نصره ومَثَل زعيم الروم

مَثَـل بازِيَيْن لكل واحـد منهما فِرَق مِن الطير تحمل إليه الإتاوة وقد تعاقد البازيان ألا يعرض واحد منهما لما فى حيز الآخر من الخشاش.» (المعرى، ١٩٨٤م: ٤١٥)

فى موضع آخر يشـير إلى هدية قيمة أرسـلها عزيز الدولة إلى بسـيل حقنا لدماء الناس ويشـبهها بنكتة نحوية: «وقد حمل السـيد عزيز الدولة – خلّد الله مُلكه – ما فيه من الكَرَم والرأفة بالرعية والرغبة فى حقن الدماء، على أن بعث هدية سـنية أشـبهت شرف قَدره وعزوف نفسه والهدية مَثَلها مَثَل "ما" التى تكف العامل عن العمل؛ ألا ترى أنّ إنّ وأخواتها تكفّهن "ما" عن النصب؟» (م.ن: ٤٢٠)

وفى مـكان آخر يتحدث عن سـبب توتر العلاقات بين والى حلـب وملك الروم: «وتحدثت العامّة أن سـبب الفساد بين "السيد عزيز الدولة" أعزّ الله نصره وبين الطاغية أنه سامه أن يجتمع معه والمثل السائر: وهل يجتمع السيفان ويحک فى غمد؟ وكيف يطمع مثله فى هذه المنزلة؟ وإنما قيل إنه جعل للسـيد "عزيز الدولة" أعز الله نصره العُشـر فى مملكته... وبالعُشـر الذى لم يَغِض من المملكة أردتَ أن تستحوذَ على مودة السيد عزيز الدولة – أعزّ الله نصره– ولعله إن شـاء الله إن حاربَ أخذَ الخُمسَ بحق الغنيمة... ولو أن هذا الرجل شَطَر مُلكَه للسيد عزيز الدولة –أعزّ الله نصره– لم يُجبه إلى ما سأل، إلا أن يرى ذلک صلاحا للمسلمين.» (م.ن: ٦٨٨–٦٨٥)

نـرى دور السـلطة والأيديولوجيا فى لغة أبى العلاء وخطابـه؛ فعندما يتحدث عن العلاقات الودية بين والى حلب وملک الروم يبرر انعقاد مثل هذه العلاقات ويشـبههما بالبازيـين وعندما يتحدث عن سـبب توتـر العلاقات ينحاز إلى جانـب عزيز الدولة ويسـتفيد من مَثَل سائر معروف حول عدم إمكان اجتماع سيفين فى غمد واحد ويعيب ملک الروم بأنه يقصد مودة عزيز الدولة ولايدفع له مايسـتحقه فيصور أبوالعلاء عزيز الدولـة كخيرالناس وعلى حق دائما وكل أفعاله له مبرر لأنه والى حلب ولأنه مسـلم ويصور ملک الروم كشر الناس وكل أفعاله قبيحة لأنه ملک الروم وليس مسلما.

مساوئ ملک الروم

كان أبوالعـلاء عفيفا فى حياته وكلامه و أدبه، ولهذا لانرى قبيحا فى شـعره أو نثره.

وعندما يتحدث عن المساوئ الأخلاقية لبسيل ملك الروم لايذكرها بصراحة بل يكنى عنها بأشعار لامرئ القيس والفرزدق ليس فيها قبيحا من الكلام: «وحدّث بعض الواردين من حضرة هذا الرجل بأشياء يُكنى عنها ولكنّا نجعل البدل من ذكرها إنشاد أبيات لمرئ القيس وأبيات للفرزدق... وأفحش فى أبيات لاأذكرها... .» (م.ن: ٥٦٦-٥٦٤)

يصف ملك الروم بالغدر والمكر والفسق والفجور والمرض والشيخوخة «وزعيم الروم قد ألف الغدر ونشأ عليه ...

والشيخُ لايترک عاداتِه حتّى يُوارى فى ثَرى رَمسه...

... وإنما قلت ذلک لأنه خرج إلى هذه البلاد مرتين وهو فيما يزعم سِلم للحمدانية... فكان مَثَله مَثَل "عمرو بن هند" والطائيين؛ كان بينه وبينهم عهد، فغزا عمرو فى جيش فأخفق، فلما مرّ بقوم من الطيئ يسكنون السهل فأخذهم.» (م.ن: ٥٥٥ و ٥٥٦)

«وقد حدّث بعض من ورد من حضرة هذا الرجل... أنه يعرض له صُداع شديد وأنه يداوى منه بالكَىّ، ففى رأسه مسامير كثيرة والمثل السائر: آخر الدواء الكَىّ وبعضهم يقول: آخر الداء الكَىّ... وما خير شيخ قد كُوِى رأسه ذاتَ المرار؟» (م.ن: ٥٦٠)

من ميزات أسلوب أبى العلاء فى هذه الرسالة أنه يأتى بِمَثَل من شعر العرب أو شعرائهم أو مشاهيرهم لكل قضية مثلا عندما يتحدث عن ولد غير شرعى لزعيم الروم، أوصى به الملک بعده إن مات أخوه الشرعى قبله: «أن هذا الرجل له ولد من امرأة ليست تَحِلُّ لمثله على رأى أصحاب الشرائع وقد جعل له رتبة ورأيه إن مات أخوه قبله أن يُقِرَّ بِنَسَبه ويجعل الملک إليه مَثَله فى هذا مَثَل معاوية وزياد بن أبيه.» (م.ن: ٥٧٢)

نرى أن السلطة السياسية فى حلب التى تتمثل فى عزيز الدولة جعلت أبا العلاء ينحاز نحوه كأمير للملسمين ويشوه صورة بسيل ملک الروم كأمير للكفار فى رأيهم. والعلاقات السياسية السرية بينهما جعلت أبا العلاء يعكسها فى رسالته ونرى دور الأيديولوجيا فى إخراج الرسالة بهذه الصورة لأن أبا العلاء يبرر تصويره الإيجابى لأمير حلب وتصويره السلبى لملک الروم بدافع الدين فأمير المسلمين رمز للحق لأنه مسلم وملک الروم رمز للباطل لأنه كافر. فلأيديولوجيا استخدمت فى خدمة السلطة

كما رأى التحليل النقدى للخطاب، كما يؤكد فيركلاف على أن الأيديولوجيا هى المعنى فى خدمة السلطة وتساعد على إنتاج وتغيير روابط السلطة. (يورگنسن وفيليپس، ١٣٩٣ش: ١٣٠)

وكثيرا ما تحدث أبوالعلاء عن مساوئ ملک الروم لكنه يشبهها بالقضايا النحوية والنكت العروضية؛ مثلا عندما يتحدث عنه وأخيه قسطنطين، يشبهانهما بالبحور العروضية «وحَدَّثَ رجلٌ فى جِلَّة القُوّاد يُعرف بِوَصيف الثَغر كان يستصحب فى بعض الزمان "بكجُور" أنه شاهد هذين الأخوين بأنطاكية... فى سنة نيف وستين... وأن "قسطنطين" كان أجسم من "بسيل" وأحسن بَشَرا وأن الظان كان يظنها الأكبر ويظن "بسيل" أصغر. فمَثَلُهما فى ذلک مَثَل الهزَج والرجز وهما أخوان ومولد الهزج فى الدائرة قبل مولد الرجز والهزج أصغر منه فى السمع لأن مُستَعمَلَه رباعى والرجز قد استعمل منه السُداسى.» (المعرى، ١٩٨٤م: ٦٠٧)

فى موضع آخر يتحدث على لسان الثعلب عن تأهب الروم لغزو حلب وينتقد أخلاق ملک الروم ويشبهه باللصوص: «إنى سمعتُ أخبار زعيم الروم فوجدتها مختلفة، إلا أنه قد نهَد عن كُرسى مُلكه وقَرُب مِن بلاد المسلمين وهو فى ذلک يُخفى أخباره ويَضبِط المسالک ويقطع السُبُل وليست هذه أفعال الملوک إنما هى أفعال المتلصّصين والخُرّاب... .» (م.ن: ٦٤٣)

وينقل كلامه حول استرداد الشام ويسخر منه: «وقد حكى عنه بعض الحاكين أنه يقول أريد أن اخرج فاسترَدَّ ما أخذَه المسلِمون من أرضِ الروم... هيهات هيهات إن الشعر المجزوء وهو الذى ذهب منه جزءان لايرجع إليه أبدا ما ذهب منه.» (م.ن: ٦٨٩ و ٦٨٨)

إقامة الصلة بين الخطاب الأدبى-اللغوى والخطاب السياسى

يحرص أبوالعلاء على أن يشبه الأحداث التاريخية أو قضايا سياسية أو أوصاف الناس سواء من الملوک والكبار أو من العوام بقاضيا عروضية أو نحوية أو لغوية؛ على سبيل المثال عندما يقارن بين فرسان العرب والروم يقول: «وفرسان العرب إذا اجتمع

بعضهم إلــى بعض عظم بلاؤهم وإن تفرقوا فالفرقة لاتضرهم فى مجال الخيل وفرســان الروم ليسوا كذلک، لأنهم يَتَكَتَّبُون كتائبَ ويجَتَمِعُون كراديسَ فإذا افترقوا فى المعترک فذلــک بَوارُهُم لامحالة، فَمَثَل فُرســان العرب مَثَل الأبيات التى يَســتغنى كل بيت منها بنفسه فإن اجتمعت عَظُمت الفائدة وإن افترقت فكل بيت منها له غَنَاء... ومَثَل فُرسان الــروم مَثَل أبيات يتصل بعضهــا ببعض فإن افترقت ذهبت منها الفائدة.» (م.ن: ٦٩٧ و ٦٩٨)

يتحدث عن سياسة الملوک بالنسبة للرعية ويُشبههم بحالات الأفعال: «والملوک بعد ينقســمون كانقســام الأفعال فمنهم من يشــبه فعله الفعل المتعدى إلى مفعولين ولايجوز الأقتصــار على أحدهما مثل ظننتُ وخلتُ وبابهما وذلک من الملوک من يعمل فعلُه فى رعيتــه ولايكون له بُدّ من محاربة عــدوه ومنهم كالفعل الذى يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصــار على أحدهما دون الآخر مثل أعطيتُ وكَسَــوتُ وذلک الذى يعمل فعلُه فى رعيته فيكون له عدو مَرةً يُحاربه ومَرةً يُسالمه وأما الفعل الذى يتعدى إلى مفعول واحد فمثلــه كثير مــن الملوک والعامة والولاة فملک يعمل فعلــه فى رعيته فقط... ووالٍ ينفذ فعلــه فى أهل ولايته ... والوحيد من بنى آدم مَثَله مَثَلُ الفعل الذى لايتعدى إلى مفعول مثــل قام وقعد وإنما هو مقصور علــى فاعله لا غير... فى الملوک من يكون فعله كالفعل المتعــدى إلى مفعولين ثم يُلغَى بعد ذلک ...فذلک مَثَل الملک الذى زالت مملكته.» (م.ن: ٤٢٣-٤٢٥)

ويســتعين بقضايا نحوية ويشــبه افعال والى حلب بالأفعال المتعدية قائلا: «وأفعال الســيد عزيز الدولة وتاج الملــة أمير الأمراء أعز الله نصره مثــل الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفعولين ففعله – خلد الله ملكه- يرفع نفسه ... ومفعولاته الثلاثة الأول منه الرعية والثانى العرب والثالث الروم و هو بتدبيره وسياســته يعمل فيمن بَعُد منه فمثله مثل إن وأخواتهــا تتخطى ما بينها وبين معمولهــا من المعترضات حتى تعمل فيه ... هو أعز الله نصره وإن كان مقيما فى حلب حرســها الله يؤثر فعله وسياسته فيمن وراء الدروب وإن فصل بينهما أعلام وســهوب وزعمت العامة بجهلها أن رســالته إلى زعيم الروم أمسک عن جوابها لإمر لايُعلَم فهل شَــعروا أنَّ مَثَل رســالته مَثَلُ واو القَسَــم يجئ جوابها بعد

المهلة المتراخية وإن ظنَّ السامع أن الكلام قد انفصل بعضه من بعض ... وقد حمل السيد عزيـز الدولة خلد الله ملكه ما فيه من الكرم والرأفـة بالرعية والرغبة فى حقن الدماء على أن بعث هدية سـنية أشبَهَت شَـرَف قدره وعزوف نفسه والهدية مَثَلُها مَثَلُ ما التى تكف العامل عن العمل ... ومَثَلُ حلب حرسـها الله مَثَل عند ومثل السـيد عزيز الدولة خَلَّدَ الله مُلكَه مَثَل مِن ولايجوز أن يدخل على عند شئ من الحروف العوامل غير مِن... ومَثَلُه ومَثَل السـيد عزيز الدولة أعز الله نصره مَثَلُ الفعلين؛ الأول والثانى يجتمعان على طلب العمل فى الإسـم فيكون العمل والقوة فى الثانى لأنه أقرب وعلى ذلك ورد كلام العرب... .» (م.ن: ٤٢٣-٤١٨)

نـرى أبا العلاء يقيـم الصلة بين الخطاب السياسـى والاجتماعى والخطاب الأدبى ويشـبه القضايا السياسية والاجتماعية والعسـكرية بموضوعات لغوية وصرفية ونحوية وعروضية. بإمكاننا أن نربط هذه الظاهرة بالسـلطة الثقافية السائدة فى عصر أبى العلاء الـتى كانت تولى الشـعر والأدب عناية بالغة. كما يؤكد التحليـل النقدى للخطلاب أن السـلطة كامنة وراء اللغة وكيفية اسـتخدام اللغة للمرجعيـات الثقافية وذوى المكانة الاجتماعية تشـكل معيارا فى المجتمع. (خوراسگانى وخوش آمدى، ١٣٩٠ش: ١٣٣) كان الشـعر والأدب والمعلومات اللغويـة والعروضية فى عصر أبى العلاء موضع اهتمام الملوك والسـلاطين والناس وكان الشـعراء والأدباء يحظون باحترامهم وعنايتهم فهذه الظاهرة دفعت أبى العلاء على إقامة الصلة بين وصفه لأحداث بيئته والشعر والأدب.

خطاب الدعاية

الحرب النفسية بين الروم والمسلمين

يخصص أبوالعلاء جزءا من رسـالته بالحرب النفسـية بين ملك الروم "بسيل" وبين المسلمين خاصة سكان حلب ووالیها. بإمكاننا أن نقسم هذه الحرب إلى قسمين؛ القسم الأول هو الإشـاعات التى كانت تتناقلها أفواه العامة حول مزاعم بسـيل ملك الروم وتهديداته بالنسبة إلى غزو حلب والقسم الثانى، الاقتراحات التى كان يقدمها أبوالعلاء لرفع معنويات المسـلمين وتشجيعهم وتهدئة قلوب العامة الوجلين من غزو الروم. على

سبيل المثال يتحدث أبوالعلاء عن قدرة والى حلب فى ردع العدو ويطمئن قارئه بأن الروم منهزم لامحالة ويستعين بالتشبيه بالقضايا النحوية: «وأهل ملته يزعمون أنه لو خرج لم ينصرف، وكذبوا، لو خرج لَصغّره السيد "عزيز الدولة" –أعز الله نصره– فانصرف وإنما عَنيتُ صَغّره من الصَغار. ألا ترى أن "عُمَرَ" و"قُثَمَ" و"زُفَرَ" إذا صُغِّرن انصرفن... فهذا حكم فى انصراف الطاغية.» (المعرى، ١٩٨٤م: ٤٨٩)

فى موضع آخر يطلعنا أبوالعلاء على أن عزيز الدولة أمر بمجئ والدته إلى حلب لطمئنة الناس وإخبارهم بأن لاداعى للقلق: «وقد حمل "السيد عزيز الدولة" –أعز الله نصره– رغبته فى إيناس الرعية ورأفته بِمَن وَلِى مِن العامة أن كلف "أسد الدولة" –أدام الله تمكينه– أن يحمل إلى حلب –حرسها الله– والدته "الرباب" إيثارا لسكون الأنفس و إعلاما للسواد الأعظم بالتئام الكلمة والتضافر على صَدّ الأعداء.» (م.ن: ٥٢٠)

فى كثير من الأحيان يحاول أبوالعلاء أن يقدم إجابات شافية إلى المتشائمين ومنتقدى عزيزالدولة. مثلا يفند أبوالعلاء أقوال الذين يطعنون حاكم حلب بسبب قلة جنوده ويخوّفون الناس ويشبه حاله بالضمير: «والمرجِفون بزعيم الروم يزعمون أنه كاسم الفاعل يعمل فيما يُستَقبَل من الزمان وقد مضى القول أن السيد عزيز الدولة أعزّ الله نصره يُصغّره إذا خرج وقد علمنا أن اسم الفاعل إذا صُغِّر بطل عملُه... ولعل المرجفين بذلك يظنون أن السيد عزيز الدولة أعزّ الله نصره قليل العدة وهو بنفسه الخميس اللَجِب ومَثَله فى حلب حرسها الله مَثَل الضمير يُضمَر فيختَصر.» (م.ن: ٥٢٨)

والمعلومات التى يقدمها أبوالعلاء خلال كلماته تدل على اشتداد الحرب النفسية التى شنتها الرومان لتضعيف معنويات أبناء حلب: «وزعم المرجفون من أهل مِلّة الطاغية أنه قد أمر قوما من أهل عمله بحفر أماكن فى بلده ظن المرجفون أن حفرها يكون قوة لزيادة الماء فى السعيد قُوَيق ... حتى يكون ثالثا للرافِدَين وهما دجلة والفرات... .» (م.ن: ٥٥٠) ثم يقترح ليكن يشن المسلمون أيضا حربا اعلامية ضد الروم: «ولولا أن الكذب لايحسن بأهل الإسلام ولا بأحد من الناس لجازيناهم على كذبهم الظاهر ... وما الذى كنا نقول لو استحسنّا ذلك؟ كنا نقول أن السيد عزيز الدولة أعزّ الله نصره قد راسل أمير المؤمنين الظاهر لإعزار دين الله بأن يأمر الحفدة والأعوان والعلماء

بالهندسة ومجارى المياه أن يصرفوا البحر عن مدينتهم قسطنطينية إلى جهة أخرى حتى ينضب ما بينها وبين بلاد المسلمين من ماء البحر فيصير أرضا مسلوكة تسافر فيه الناقة والبعير ويمكن الجيوش المنصورة أن تسلكه لفتح مدينتهم... إن السيد عزيز الدولة أعز الله نصره يراسل أمير المؤمنين فى خرق "بحر القُلزم" إلى "بحر الروم" ليكثر الماء على مدينتهم فيغرقَها وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ أراد بالخزى فتح مدينتهم العظمى ... والله يجعل ذلک على يدى عزيز الدولة... .» (م.ن: ٥٥٥-٥٥٢)

الفأل والطيرة فى الرسالة

من الأساليب التى يستفيد منها المعرى فى مجال الحرب النفسية ضد الروم والرفع من معنويات المسلمين، هو التنبؤ بهزيمة العدو وانتصار المسلمين على طريق التفأل والتطير بأسماء مدن الشام وأثمارها وأزهارها وأسماء قادة العدو وفى هذا المجال يستفيد من كنز معلوماته اللغوية. يقول أبوالعلاء «وأريد أن أذكر أشياء على الفأل للمسلمين والطِيَرَة للعدو إن شاء الله فأقول إن هذا الطاغية إن أخذ طريق "مَرعَش" فَقَسَّمناها شَطرَين وحملناها على قصة هُدَى وهُدهُد وعلى قول بعض الناس فى عِطر "مَنشَم" أنه مَن شَمَّ فإن شطرها الأول من قولک مرَّ فلانٌ وذهب أى مات وهلک وعش مقاربةٌ لفظَ عَشَّ الشَجَر إذا يَبِسَ ورقُه... وأما مَعرّةُ النعمان، فَمَعرَّةٌ لِلعَدو من قوله تعالى: فَتُصيبَكم منهم مَعرةٌ بغير علم. أى شدة وقال بعض أهل اللغة المعرة نجوم فى السماء دون المجرة فإن صحّ ذلک فهى فأل أى هى عزيزة كَعِزّ النجوم ... و"حماة" تحتمل ثلاثة أوجه؛ الأول أن تكون فَعلَةً فى الحماية فحسبک بهذا فألا للمسلمين والثانى أن تكون من حَمَاة الزوج فتلک طِيَرة على العدوّ ... .» (م.ن: ٦٥٧-٦٤٩)

وهكذا يذكر أبوالعلاء أسماء مدن الشام على طريق الفأل للمسلين والطيرة للروم ثم يتطرق إلى أسماء الأزهار والثمار والنبات «وأما الريحان فهو للمسلمين رِيّ حَانَ مِن رِيّ العَطَش وأما الخيرى فهو فِعليّ مِن الخُوار أى خَار مِن الفَزَع على معنى الطِيَرَة وهو للمسلمين من الخَير والخِيَرَة ولو رأى النرجس لَكُنّا نرجس عليه مِن رَجيس العدو ...

والسُّماق للسيد عزيز الدولة أعزّ الله نصره فأل بالسُمُوق لأنه جمع سامِق أى أصحابه يَسمُقُون ويَعلُون وإذا حملناه على الطِيَرَة للعدو فهو سُمٌّ اَقَّ أى اطّلع... .» (م.ن: ٦٧٤ و ٦٧٥)

ولايكتفى بذلک، بل يتناول أسماء أصحاب ملک الروم على طريق الفأل والطيرة «وممّا يُحمَل على الفأل والطِيَرَة من أسماء أصحابه الدَماسقة جمع دُمُستق، تجعلها دِماءَ سِقةٍ فالدماء جمع دم والسِقَة المصدر من قولک وَسَقتُه وَسقا وسِقَةً إذا طردته ... أى يُطرَدُون وتُسفَک دِماؤُهم ... والأساقفة تحمل أمرين: أحدهما أن يكون اَسَى قُفَّةٍ والمعنى حزن شيخ كبير يقال للشيخ الكبير قد صار قُفَّةً... والآخر أن يكون أساء قُفَّةً مِن الإساءة... أى أساء هذا الشيخ وهو الطاغية.» (م.ن: ٦٨١-٦٧٩)

لعبت الأيدولوجيا فى تكوين هذا القسم من الرسالة دورها أيضا لأن الفأل والطيرة كانت من عادات العرب القديمة فدفعت أباالعلاء إلى التفأل بانتصار المسلمين وهزيمة العدو على طريق التفأل والتطير بأسماء مدن الشام وأثمارها وأزهارها وأسماء قادة العدو ومن جهة أخرى لأنه كأديب مسلم يؤمن بأن المسلمين على حق والكفار ليسوا على حق. ونرى أبا العلاء متفائلا بنصر المسلمين وهزيمة العدو.

الخطاب الاجتماعى

مما يلفت النظر فى هذه الرسالة، أن أبا العلاء يصور الظروف الاجتماعية لحلب وأعمالها وأحوال مختلف شرائح المجتمع خلال هذه الأزمة بدقة تدل على أنه لم يكن رجلا منعزلا عن الناس والمجتمع غير مُهتم بمشاكله. مثلا يشرح اختلاف آراء الناس حول البقاء فى حلب أو مغادرتها ويصف أحوال الشرائح المختلفة من المسلمين واليهود والنصارى والكبار والقضاة والتجار وأصحاب الثروات والعوام من النساء والرجال ويصف حالات المقمين والنازحين ودائما يشبه هذه الأحوال والظروف بالقضايا العروضية أو النحوية: «وتختلف آراء الناس فى هذه الجولة وغيرها من الجولات ويكون اختلافها متباينا كاختلاف العرب فى النشيد؛ فالمقيم منهم مَثَله مَثَل الذى يقف على البيت المطلق إذا أنشده بالسكون، فيقول:

أقِلّــى اللَومَ عــاذِلَ والعِتاب وقُولى إن أصبتُ لقد أصاب

والذى يَفِرّ إلى مَظِنّة الأمن، مَثَله مَثَل الذى يُثبت الألفَ للترنم فيقول: العتابا وأصابا ... ومَــن رحــل إلى موضع لا يأمن فيــه فَمَثَله مَثَــل مَن يُنَوّن القــوافى فى غير موضع التنوين... .» (م.ن: ٤٦٥ و ٤٦٦)

فى موضع آخر نرى أبا العلاء يســتعين بالأمثلة النحوية ليصور لنا أحوال الناس الوجلــين من غزو الروم: «والشــدائد فى هذه الروعات تحمــل المتطاول من القوم على أن يتواضع والغنى على أن يتهيأ بهيئة الفقير فيشبه الممدود إذا قُصِر كما قال العَرجى:

أنزل الناسَ فى الظواهر منها وتَبَــوَّى لنفســه بَطحاهــا

والطمع من أهل الخِسَّة فى مثل هذه الحادثة يُحَسّن لهم التطاولَ وتَتَبُّعَ رحالِ الضعفاء فيكون مَثَلُهم مَثَل المقصور إذا مُدَّ... وهذه النائبة تلزم الذين يتظاهرون بالعُدم والفقر أن يخرجوا ما يُخفون من الذخيرة يســتعينون بها على اكتراء الحمار والراحلة مَثَل المدغم أظهرت الضرورة ما عنده كما قال العَجّاج:

إنَّ بَنــىَّ لَئِــام زَهَــدة ما لِىَ فى صدورهم مِن مَودَدَة

يريد مودة.» (م.ن: ٤٢٥-٤٢٣)

ويتطرق إلى الحالات المحتملة التى تطرأ على الناس خلال هذه الأزمة وردود فعلهم: «وربما طمع الجار لهذه الفتنة إذا كان من أهل الشر فى جاره إذا كان من أهل الخير فعدا على منزله فأخذ ما فيه فأشــبه فعله ذلک نقل الحركة من الحرف إذا وُقِفَ عليه إلى ما جاوره من الحروف.» (م.ن: ٤٤٠)

ويتحدث عن اســتعداد الكبار مثل قاضى حلب للخروج والفرار مســتعينا بالأمثلة النحويــة: «وأما القاضى فترک هذه الأرض ولحق بوطنــه "بالس" رَدّته إليها الضرورة فــكان مَثَله مَثَل المرفوع من الأعــلام فى النداء لما لحقته الضرورة فَنُوِّنَ رجع إلى أصله وهو النصب كما قال مهلهل:

ضَرَبت صَدرَهــا إلى وقالَت
يا عَديّا لقد وَقَتک الأواقى.»

(م.ن: ٤٤٧ و ٤٤٨)

يتحدث عن دقائق أحوال الناس فى جزئياته مثلا أحوال الشركاء الخائفين من غزو الروم: «ويدعو ما يلقاه النافرون من ضيق الأنفس وحَرَج الصدور إلى تشاجر الشركاء واختلافهم فى الجهات المقصودة ويحملهم ذلک على الفرقة... فربما كان الرجلان شريكين و لـكل واحد من رأس المال ما يمكن أن يسـتبضع فلا تضرّه الفرقة فيكون مَثَلُهما مَثَلُ قناديل وسمادير إذا قسـمت هاتان الكلمتان وما كان مثلهما من الكلام فإن الشـطرين يمكـن لكل واحد منهمـا نطقُ الناطقـين وإن اختلفت المعانى قبل القسـمة وبعدها ... وقد يكون الشـريكان لأحدهما أكثر من الآخر وتكون لصاحب القليل بقية بعد الفرقة فمثلهما مثل مساجد وسفرجل أذا أُخِذ منهما: مسا وسفر بقى منهما أقل مما ذهب... .» (م.ن: ٥٠٢ و ٥٠٣)

فى موضع آخر، يتحدث الثعلب عن أخبار الناس واجتماعهم فى المساجد والكنائس وهم يتشـاورون حول الإقامة فى المدينة أو مغادرتها «فَسَـمِعتُ الجالية يشـتورون فى المساجد والكنائس ويُديرون الرأى فلاتَنصرم لهم عزيمة ولاتبرَم بأيدهم مِرَّة بل يختلفون اختلاف العرب فى الوقف فَبَعضُهم يقف على السكون ... وبعضُ العرب يُشم ويَروم عند الوقف.» (م.ن: ٥٠٦)

أحوال اليهود والنصارى

ويصـف أبوالعلاء أحوال الأقليات المذهبية من اليهود والنصارى وردود فعلهم تجاه هذه الأزمة التى تدل على حرية النشـاطات الاقتصادية والاجتماعية لأهل الكتاب فى حلب فى عهد أبى العلاء. (م.ن: ٤٩٤-٤٥٩) على سبيل المثال يصف أحوال التجار من اليهود: «وإنک لترى الرجل من يهود وهم أهل لين وضعف يُظهر التَشدد والتجلد على ما نزل، فيخرج به ما فعلَ عن الطبع ويكون مَثَله مَثَل الحرف الذى يقع به التشـديد فى الوقف ثم يُسـتعمل كذلک فى الوصل فينكره السمع وتنفر منه الغريزة ... ويهود لابد لها من لين ومَثَلُها مَثَل الأشـعار التى لاتخلو أواخرها من الحروف اللينة وإنما ألزمت ذلک لأنه أحسن بها عند السماع وأسلم لها فى اللفظ... .» (م.ن: ٤٦١ و ٤٦٢)

نـرى أن مجتمع أبى العـلاء يصور خطابه فى هذه الرسـالة، فيصـور أحوال الناس

ومخاوفهم ويعكس أفكارهم بدقة وتلعب الأيديولووجيا دوره فى تصويره هذا فيميز بين المسلمين والنصارى واليهود لأن السلطة الثقافية والاجتماعية تميز بين الناس حسب معتقداتهم وانتماءاتهم الدينية والمذهبية.

النتائج

١. يمكن لنا أن نقسم خطاب أبى العلاء المعرى فى هذه الرسالة إلى أربعة أنواع: الخطاب الأدبى الذى يضم معلوماته الواسعة فى مجال الشعر واللغة والنحو والعروض، والخطاب السياسى الذى يتمثل فى تصويره للقضايا السياسية بين والى حلب وملك الروم، والخطاب الاجتماعى الذى يتبلور فى تصويره لأحوال الناس خلال أزمة غزو الروم لحلب، وخطاب الدعاية المتمثل فى الحرب النفسية بين الروم والمسلمين.

٢. اختار أبوالعلاء التعقيد فى لغته والسجع والغريب لأن السلطة الثقافية فى عصره تتطلب هذا الاستخدام وكما يشير فيركلاف إلى أن الخطاب يصنع الثقافة والثقافة بدورها تصنع الخطاب، أسلوب أبى العلاء بدوره يساعد على تقوية هذا النوع من الخطاب الأدبى.

٣. عرض أبوالعلاء فى هذه الرسالة تضلعه من علوم اللغة والنحو والعروض حيث مكّنه من تشبيه أنواع حالات الناس بقضية نحوية أو عروضية أو لغوية وعلاوة على هذا، تدل هذه الرسالة على اطلاعه الواسع على مستجدات عصره وماكان يجرى حوله وأنه لم يكن رجلا منعزلا عن الناس والمجتمع بل شارك همومهم وهواجسهم خلال رسالته.

٤. أقام أبوالعلاء الصلة بين الخطاب السياسى والاجتماعى والأدبى؛ حيث شبّه أحوال الناس والقضايا السياسية والاجتماعية بالموضوعات الأدبية والنحوية والعروضية. تدل هذه الظاهرة على دور السلطة الثقافية – فى تصويره للقضايا الاجتماعية والسياسية – التى تولى الشعر والنحو عناية فائقة.

٥. لعبت السلطة الثقافية والسياسية دورا لايستهان به فى تكوين خطاب أبى العلاء

ولغتــه؛ فى الصور المختلفة التى عرضهــا أبوالعلاء؛ صورة العلاقات بين ملک الروم وأمــير حلب، الصورة الإيجابية لأمير حلب والصورة الســلبية لملک الروم، صورة أحــوال الناس من الكبار والفقهاء والتجار والســوقة واليهود والنصارى، حتى فى صعيد التفأل والتطير لصالح المسلمين وعلى حساب الروم.

٦. صــور أحوال الناس ومختلف شــرائح مجتمع حلب فى الأزمة التى حدثت بســبب الصفقات السياسية بين عزيز الدولة أمير حلب وبسيل ملک الروم، كما تحدث عن الحرب النفسية بين الروم والمسلمين واقترح بنفسه دعايات حربية فى هذا المجال.

المصادر والمراجع

العربية:

ابن أبى جرادة، عمر بن أحمد. ١٤٢٥ق. زبدة الحلب من تاريخ حلب. حققه سهيل زكار. ط٢. دمشق: دار الكتاب العربى.

الجندى، ســليم. ١٩٨٦م. نواحى التجديد والتقليد فى نثر أبى العلاء؛ أبوالعلاء المعرى حياته وشــعره. بيروت: المكتبة الحديثة.

خريبانى، جعفر. ١٩٩٠م. أبوالعلاء المعرى رهين المحبسين. ط١. بيروت: دارالكتب العلمية.

رزق، صلاح. ٢٠٠٦م. نثر أبى العلاء المعرى دراسة فنية. القاهرة: دار غريب.

ضيف، شوقى. لاتا. الفن ومذاهبه فى النثر العربى. ط١٢. القاهرة: دارالمعارف.

طباخ، محمد راغب. ١٤٠٨ق. اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. ط٢. حلب: دار القلم العربى.

الطرابلسى، أمجد. ١٣٩٤ق. «رسالة الصاهل والشاحج لأبى العلاء المعرى». مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد التاسع والأربعون. ربيع الأول. العدد ٢.

المحاسنى، زكى. ١٩٤٧م. أبوالعلاء ناقد المجتمع. دمشق: دار الفكر العربى.

المعرى، أبوالعلاء. ١٩٨٤م. رســالة الصاهل والشاحج. حققتها عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ. ط٢. القاهرة: دار المعارف.

المقدســى، أنيس. ١٩٨٦م. «بيئة المعرى و أثرها فى شــعره». أبوالعلاء المعرى حياته وشــعره. بيروت: المكتبة الحديثة.

الفارسية:

آقاگل زاده، فردوس، ١٣٨٥ش. تحليل گفتمان انتقادى. فردوس آقاگل زاده. تهران: شركت انتشارات علمى وفرهنگى.

خوراسگانی، علی ربانی وخوشآمدی، مرتضی. ۱۳۹۰ش. «بررسی تطبیقی رویکردهای انتقادی به تحلیل گفتمان». فصلنامه علمی پژوهشی روش شناسی علوم انسانی. سال ۱۷. شماره ٦٨. پاییز. صص ١٤٤-١١٧.

فرکلاف، نورمن. ۱۳۷۹ش. تحلیل گفتمان انتقادی. فاطمه شایسته پیران ودیگران. چ۱. تهران: وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامی مرکز مطالعات وتحقیقات رسانه ها.

مکاریک، ایرنا ریما. ۱۳۸۵ش. دانشنامه نظریه های ادبی معاصر. مهران مهاجر ومحمد نبوی. چ۲. تهران: نشر آگه.

مک دانل، دایان. ۱۳۸۰ش. مقدمه ای بر نظریه های گفتمان. حسینعلی نوذری. چ۱. تهران: انتشارات فرهنگ گفتمان.

ون دایک، تئون. ١٣٩٤ش. تحلیل متن وگفتمان. ترجمه پیمان کی فرخی. چ۱. آبادان: نشر پرسش.

یار احمدی، لطف الله. ۱۳۸۳ش. گفتمان شناسی رایج وانتقادی. چ۱. تهران: هرمس.

یورگنسن، ماریان وفیلیپس، لوئیز. ۱۳۹۳ش. نظریه وروش در تحلیل گفتمان. ترجمه هادی جلیلی. چ۱. تهران: نشر نی.